

الحلقة الرابعة  
القَصَصُ الدِّينِيُّ  
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

رُفَا السُّوَلَا

عبد الحميد جودة السحار



انطلق رسولُ الله في طرقاتِ المدينة في حُلَّةٍ  
 حمراء، يتكفأ في مشيته كأنما الأرضُ تطوى له ،  
 يلبس النعال السَّبْتِيَّةَ ، ويطأ الأرضَ بقدميه جميعاً ؛  
 يُلقى السَّلامَ على أصحابه ، ويمسحُ بيده حدودَ  
 الأطفال الذين يستقبلونه فرحين ، فتملاً أنوفهم  
 رائحةً أطيبَ من المسك ، وتذخُرُ صدورهم بمشاعرِ  
 أرقٍّ من النَّسيم .

كان مستديرَ الوجه ، أبيضَ مُشرباً بياضه حمرة ،  
 ضخَمَ الرَّأسِ ، عَظِيمَ العَينين ، أَهْدَبَ الأَشْفارِ ،  
 مقرونَ الحاجبين ، رَجُلَ الشَّعرِ أسودَه ، يضربُ  
 مِنكبيهِ ، كَثُّ اللَّحْيَةِ ، دائِمَ البِشرِ ، سَهْلَ الخُلُقِ ؛  
 فراحَ النَّاسُ يَرْنُونُ إليه ، وقد انشَرَحَتْ صدورهم ،

فقد أزاح الغشاواتِ عن عيونهم ، وأخرجهم من  
الظلماتِ إلى النور .

ودلف إلى دارِ ملحان ، واضطجع على حصير ،  
وراح في النوم ؛ وجلست ابنة ملحان عند رأسه .  
فلما استيقظ ضحك تبسُّماً ، فاستنارَ وجهه ، وكأنه  
قطعةُ قمر .

فقالت : ما أضحك يا رسولَ الله ؟

فقال وهو مُشرقُ الوجه : ناسٌ من أمتي عُرضوا  
عليّ ، يركبون ثبجَ البحر ، مثلَ الملوكِ على  
الأسرة .

فقالت : يا رسولَ الله ، ادعُ الله أن يجعلني

منهم .

فقال وقد علاه البهاء : أنتِ منهم .

فرقتُ على شفيتها بَسْمَةً ، وشردَ بصرُها ، ورأتُ  
نفسها بعينِ خيالها تمخرُ البحرَ مع إخوانِها من

المجاهدين ، الَّذِينَ وَهَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ ؛ فَخَفِقَ قَلْبُهَا  
شَوْقًا ، وَتَدَسَّسَ بَيْنَ جَوَانِحِهَا أَمَلٌ حُلُوٌّ مُرْتَجَى .

٢

أَقْبَلَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَصَحْبُهُ ، وَدَخَلُوا دَارَ  
مِلْحَانَ ، يَعْلُو وَجُوهَهُمُ الْبُشْرُ ، وَمَا اسْتَقَرُّوا فِيهَا  
حَتَّى قَامَ رَجُلٌ يَذْكُرُ مَنَاقِبَ عُبَادَةَ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ أَحَدُ  
الَّذِينَ وَافَقُوا الرَّسُولَ بِالْعَقَبَةِ الْأُولَى ، وَمِنْ أَوَائِلِ  
الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ لِيَكُونُوا عَلَى قَدَمِهِمْ فِي  
الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ وَهُوَ الَّذِي أَمَرَهُ النَّبِيُّ بِالْمُضِيِّ بِبُيُوتِ  
بَنِي قَيْنِقَاعَ إِلَى ظَاهِرِ دِيَارِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مَا كَانَ  
لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَسِلَاحٍ وَأَمَرَ بِاجْلَائِهِمْ . وَاسْتَمَرَ الرَّجُلُ  
يَذْكُرُ فَضَائِلَ عُبَادَةَ ، وَلَمْ يَقُلْ إِلَّا صِدْقًا . فَلَمَّا انْتَهَى  
مِنْ خُطْبَتِهِ ، قَامَ رَجُلٌ آخَرٌ يُعَدِّدُ فَضَائِلَ مِلْحَانَ



وقومه ، حتى إذا أتم خطبته ، جرى بالطعام . فأقبل  
الناس عليه مسرورين ، وارتفعت من حُجراتِ  
النساء أصوات الدُّفوف ، وطفق بعضُ الأحباشِ  
يلعبونَ أمام الدَّار . ثم أخذتِ الأصواتُ في  
الخفوت ، وجعلَ الرِّجالُ ينسلُّونَ إلى دورهم ، ولم  
يبقَ إلاَّ عبادةٌ وملحانٌ ، فقادَ ملحانُ صاحبه إلى  
حيثُ كانت ابنته ، وقال له :

- بَارِكِ اللَّهَ لَكَ فِيهِنَّ .

وجعلَ عبادةُ بنُ الصَّامتِ ابنةَ ملحانَ إلى داره ،  
فقد صارت له زوجة .

بعث أبو بكر الجيوشَ إلى الشَّام لغزو الروم ،  
فخرجَ عبادةُ بنُ الصَّامتِ مع الخارجين ، وانطلقتْ

معه أمُّ حَرَامُ بنتُ مِلْحَانَ زَوْجُهُ ؛ تشاهد المواقع  
خافقة القلب ، مُضْطَرَبَةُ النَّفْسِ ، كَلَمَّا زَحَفَ  
الرَّجَالُ إِلَى الرَّجَالِ ، وَتَقَارَعَتِ السُّيُوفُ ، مُشْرِقَةً  
الْوَجْهَ ، ضَاحِكَةَ السِّنِّ ، قَرِيرَةَ الْعَيْنِ ، كَلَمَّا سَقَطَ  
النَّسْرُ الرُّومَانِيُّ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهُ ، وَجَلَجَلَتْ فِي  
السُّهُولِ الْفَيْحَاءُ تَكْبِيرَاتُ الْفَتْحِ الْمُبِينِ !

وَطُوِيَتِ الْأَرْضُ كَمَا يُطْوَى الْبِسَاطُ ، تَحْتَ أَقْدَامِ  
الرُّومَانِ ، بَعْدَ أَنْ رَوَتْ دِمَاؤُهُمُ الْوُدْيَانَ وَالسُّهُولَ ،  
وَتَرَدَّدَتْ فِي الْفُضَاءِ صِيحَاتُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ،  
وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ،  
وَصَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ ، كَالزَّئِيرِ .

وَانْدَاحَ الْمُسْلِمُونَ فِي الشَّامِ ، حَتَّى بَلَّغُوا  
السَّوَاحِلَ الْمَشْرِفَةَ عَلَى بَحْرِ الرُّومِ ، فَوَقَفَتْ أُمُّ حَرَامُ ،  
بِنتُ مِلْحَانَ ، تَرْنُو إِلَى الْمَاءِ فِي شُرُودِ ؛ كَانَتْ  
الْأَفْكَارُ تَنْثَالُ فِي رَأْسِهَا الصَّغِيرِ ، فَتَحَرَّكَ الْأَمَانِيُّ

بين جوانحها ، فيزدادُ وجيبُ قلبها ، وتتدفقُ الدماءُ  
حارّةً في العروق .

إنّها ترى الماءَ مُنبسطاً أمامها ، وقد انطبقتْ عليه  
السّماءُ في الأفقِ البعيد ، والمراكب التي خلفها  
الرّومُ جاثمةً في المرفأ ارتفعت صوّاريها في الفضاء ؛  
فيهزّها السّرور ، وتتفتّقُ أمامَ عينِ خيالها حُجُبُ  
الغيّب ، عن عوالمٍ عجيبةٍ مسحورة ؛ فما هي إلاّ أن  
يضع المسلمون أقدامهم في هذه المراكب ، ويمخروا  
بها عُبابَ هذا البحر ، حتّى يمحووا عنه اسمَ الرّوم ،  
ويحقّقوا رؤيا الرّسول !

٤

واشرباً مُعاويةً بعُنقه ، ورمى ببصره إلى البحر ؛  
فإذا بالأمنية التي راودته في يقظته ومنامه ، تحتلُّ  
أقطارَ رأسه . إنه يرجو أن يركبَ البحرَ في إثرِ



الرُّومِ المنهزمين ، فقرَّ رأيُه على أن يبعث بأمنيته إلى  
عمرَ أمير المؤمنين ، فكتب إليه :

« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بالشَّامَ قريةً يسمَعُ أهلُها  
نُباحَ كلابِ الرُّومِ ، وصياحَ ديوكِهِم ، وهم تلقاءُ  
ساحِلٍ من سواحِلِ حمص » ، وسأله أن يأذنَ له  
بغزوهم . فلمَّا بلغَ الكتابُ أميرَ المؤمنين ، أطرقَ  
يُفكِّرُ ، فمعاويةُ هو المشيرُ بالغزو ، وما كان عمرُ  
ليأذنَ له قبلَ أن يستشير ، فكتب إلى عمرو  
ابنِ العاص : « صفْ لي البحرَ ، ثم اكتبْ إليَّ بخبره » .  
وبلغه كتابُ عمرو ، فكعفَ عليه يقرؤه :  
« يا أمير المؤمنين ، إنِّي رأيتُ خلقًا كبيرًا ، يركبُه  
خلقٌ صغيرٌ ، إن ركنَ خرقَ القُلُوبِ ، وإن تحرَّكَ  
أزاعُ العقولِ ، يزداد فيه اليقينُ قِلَّةً ، والشكُّ كثرةً .  
هم فيه كدودٌ على عودٍ ، إن مال غرق ، وإن نجا  
برق » .



ألفى عمر أن في ركوب المسلمين البحر في أثر  
عدوهم ، قبل أن تستقر الأمور في الأرض ،  
مخاطرة ؛ فكتب إلى معاوية : لا ، والذي بعث  
محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا .

## ٥

وكاتب ملك الروم عمر وقاربه ، ومشت الرسل  
بينهما . وفي ذات يوم بعثت أم كلثوم ، بنت علي  
ابن أبي طالب ، زوجة عمر ، إلى ملكة الروم بطيب  
ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ، ودستته إلى  
البريد . فلما بلغ البريد امرأة هرقل ، قدم إليها هدية  
زوجة أمير المؤمنين ، فجمعت نساءها وقالت : هذه  
امرأة ملك العرب ، وبنت نبيهم ، أرسلت إلينا  
هدية فماذا ترين ؟

— أهدى لها هدية ، تليقُ بامرأةٍ هرقل ملكةِ

الروم .

فبعثتُ إلى أمِّ كلثومٍ بهدايا فاخرة ، وبعقدٍ يتألقُ  
ببهرُ العُيون . فلَمَّا انتهى البريدُ إلى عمر ، ورأى  
الهدايا المرسلة إلى زوجته ، دعا : « الصلاة جامعة » ؛  
فوفد الناسُ من كلِّ صوب ، حتى التجَّ بهم  
المسجد ، فصلى بهم ركعتين ، وقال إنه لا خيرَ في  
أمر أبرم عن غير شورى من أمورى ، قولوا فى هديةٍ  
أهدتها أمُّ كلثومٍ لامرأةٍ ملكِ الروم ، فأهدتُ لها  
امرأةً ملكِ الروم .

فقال قائلون : هو لها بالذى لها ، وليست امرأةُ  
الملكِ بذمةٍ ، فتصانع به ، ولا تحت يدك فتتقيك .  
وقال آخرون : قد كُنَّا نُهدى الثيابَ لنسْتشيب ،  
ونبعثُ بها لتُباع ، ولنُصيب ثمنها .

فقال عمر :



— ولكنَّ الرُّسُولَ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْبَرِيدَ  
بَرِيدُهُمْ . رُدُّوا هَذِهِ الْهَدَايَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ .  
وَانصَرَفَ عُمَرُ إِلَى دَارِهِ ، وَقَدْ عَزَمَ أَنْ يُرَدَّ عَلَى  
أُمِّ كُلْثُومٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهَا .  
وَاسْتَمَرَّتِ الرُّسُلُ بَيْنَ عُمَرَ وَمَلِكِ الرُّومِ . فَتَيَقَّنَتْ  
أُمُّ حَرَامٍ ، بِنْتُ مِلْحَانَ ، أَنَّ بَشَارَةَ الرُّسُولِ لَمْ يَحِنْ  
أَوَانُهَا ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهَا مِنْ أَوْلَئِكَ  
الَّذِينَ سِيرَ كِبُونُ ثَبَجِ الْبَحْرِ ، مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى  
الْأَسْرَةِ .

٦

وَقُتِلَ عُمَرُ ، وَصَارَ عَثْمَانُ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ ،  
فَعَادَتْ فِكْرَةُ رُكُوبِ الْبَحْرِ لَغْزَوِ الرُّومِ ، تُلَحُّ عَلَى  
مَعَاوِيَةَ ، فَكُتِبَ إِلَى عَثْمَانَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْغَزْوِ ،  
فَشَرَحَ اللَّهُ صَدَرَ الْخَلِيفَةِ لِلْفِكْرَةِ ، وَأَطْرَقَ يَتَدَبَّرُ

أمره ، فألفى أن العرب ليست لهم سابقة في هذا الطراز من القتال . إنهم فرسان صناديد ، لا يُشق لهم غبار ، أبطال إذا صالوا على الأرض ؛ أما في الماء ، فما يدرى ما يفعل هؤلاء الذين مرغوا أنوف صناديد الفرس والروم في الرغام .

إنه يرى أن من الحكمة ألا يدفع المجاهدين دفعا إلى هذا الخطر الجديد ، المحفوف بالأهوال ؛ فكتب إلى معاوية : « لا تنتخب الناس ولا تفرغ بينهم ؛ خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا ، فأحمله وأعنه » . وخير معاوية الناس ، فهرعت أم حرام بنت ملحان ، إلى زوجها عبادة ، تحضه على التقدم ، فإذا به من أوائل الذين اختاروا الغزو طائعين . وتقدم أبو ذر وأبو الدرداء ووجوه الناس ، وتأهبت المراكب للانطلاق لغزو قبرص ، أول معقل بحرى للروم .



وابتعدت أولُ مراكبِ إسلاميةٍ عن الشاطئ ،  
تحوطُها قلوبُ المؤمنين ؛ وراحتْ أمُّ حرامٍ ترنو إلى  
الواقفينَ مودَّعين ، وهى تبتعد عنهم رويداً رويداً ،  
فغامت مآقيها بالدموع . وسقط الليلُ وابتلعَ فى  
جوفهِ المراكبَ التى كانت تشقُّ طريقها فى سبيلِ  
الله ، فطفق المسلمون يقرءون ويصلُّون ؛ فنزلتِ  
السَّكينةُ بقلوبِهِم ، وغشِيَهُم أَمْنٌ ، وأُفعمتْ  
صدورُهُم بالأملِ الدَّفىءِ .

ووقف قائدُ أولِ أسطولِ إسلاميٍّ ، يبتهلُ إلى الله  
فى حرارة :

اللهم ارزقنى العاقبةَ فى جُندى ، ولا تبتلينى  
بمُصابٍ أحدٍ منهم ، اللهم أنزلْ علينا نصرك ، اللهم  
أيِّدنا بروح من عندك ، اللهم انصرنا على القومِ  
الكافرين !

وأصبح الصبح ، فجعلتْ أم حرامٌ تُديرُ عينيها

فِي الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ مَعَهَا فِي الْمَرْكَبِ ، فَإِذَا الْعِزْمُ  
الصَّادِقُ يَلُوحُ فِي مُحْيَاهُمْ ، وَإِذَا بِهِمْ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ  
الْبَحْرُ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرَِّةِ ؛ فَتَوَجَّتْ شَفَتَيْهَا  
بَسْمَةً ، وَتَبَيَّنَ فِي وَجْهِهَا الرِّضَا وَالْغِبْطَةُ وَالسُّرُورُ .  
وَلَا حَتَّ مَرَاجِبُ الرُّومِ ، وَخَلَفَهَا أَرْضُ الْجَزِيرَةِ ،  
قَدْ نَبَتَتْ فِيهَا أَشْجَارُ الْفَوَاكِهِ ؛ فَاصْطَفَّ الْمُسْلِمُونَ  
فِي الْمَرَاجِبِ صَفُوفًا ، وَارْتَفَعَ التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ ؛  
وَهَبَّتِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَعْبَثُ بِالْمَرَاجِبِ ، وَلَكِنْ لَمْ  
تُرْغِ قُلُوبَ الصَّنَادِيدِ .

وَدَنَتِ الْمَرَاجِبُ مِنَ الْمَرَاجِبِ ، فَرَبَطَ الْمُسْلِمُونَ  
سُفْنَهُمْ بِسُفْنِ الرُّومِ ، ثُمَّ اجْتَلَدُوا وَإِيَاهُمْ بِالسِّيُوفِ ،  
وَوَثَبَ الرِّجَالُ عَلَى الرِّجَالِ ، وَتَأَلَّقَتِ السِّيُوفُ فِي  
الشَّمْسِ : كَانَتْ تَرْتَفِعُ لَتَهْوَى ، تَقُطُّ الرُّءُوسَ .  
وَدَارَتِ الْمَعْرَكَةُ رَهِيبةً قَاسِيَةً ، فَغَلَبَ الدَّمُ عَلَى لَوْنِ  
الْمَاءِ ؛ وَلَا حَتَّ مَرَاجِبُ فِي الْأَفْقِ الْبَعِيدِ ، إِنَّهَا



الأسطولُ المِصرىُّ قد أقبلَ يقوده والى مصرَ عبدُ الله  
بنُ سعدِ بنِ أبى سرح ، ليشُدَّ أزرَ إخوانه الخارجين  
منَ الشام .

اندحرَ الروم ، وتقدَّمتِ المراكبُ من قبرص ،  
حتى إذا بلغتِ الشَّاطِئَ ، هبطَ المسلمونَ منها إلى  
الأرض ، وهم فى تكبيرٍ وتهليل ، وتقلَّصَ ظلُّ  
النَّسرِ الرُّومانيِّ عن الجزيرة ، ووقع السَّبى ، وغنمَ  
المجاهدونَ غنائمَ كثيرة ، وإذا بأبى الدَّرْداءِ ينظرُ إلى  
ما يقعُ أمامَ ناظرَيْهِ ، ثمَّ تغيمُ عينُهُ بالدُّموع ،  
وتنحدِرُ حتى تَبُلَّ لحيَتَهُ ؛ فيرُنو إليه رجلٌ فى  
عجب ، ويقول له :

- ما يُبكيك فى يومٍ أعزَّ الله فيه الإسلامَ وأهله ؟!

فضربَ أبو الدَّرْداءِ يده على مَنْكِبِ الرَّجلِ

وقال :

- ثكلتك أمُّك ، ما أهونَ الخلقَ على الله إذا

تركوا أمره . بينا هم أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم  
المُلك ، إذ تركوا أمر الله ، فصاروا إلى ما ترى ،  
فسلّطَ عليهم السّباء ، وإذا سلّطَ السّباء على قوم ،  
فليس لله فيهم حاجة .

وهبطت أمّ حرام ، بنت ملحان ، إلى الجزيرة ،  
وهي شاردة اللّب ، تُمدُّ بصرها إلى ما حولها  
ولا ترى شيئاً ، فقد كانت ترى بعين خيالها رسول  
الله وهو يضحك وقد استنار وجهه ، كأنه قطعة من  
قمر ، وتسمع بأذنها ما دارَ بينه وبينها :

— ما أضحكك يا رسول الله ؟

— ناسٌ من أمّتي غرضوا عليّ ، يركبون ثبج  
البحر ، مثل الملوك على الأسيرة .

— يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم .

— أنت منهم .